

كتاب المنطق

دور المسلمين في تصحيح مسار علم المنطق

المؤلف يحدد فضل المسلمين على علم المنطق :

خلا كتاب المنطق المقرر من أى ذكر لدور المسلمين في مجال هذا العلم . رغم أن الفضل يرجع إليهم وخدمهم في هدم المنطق الأرسطي وإقامة صرح المنطق الاستقرائي التجريبي . ذلك المنهج الذى أخذته أوروبا عن المسلمين وأقاموا به نهضتهم الحديثة .

فالنصف الأول من الكتاب شرح فيه المؤلف منطق أرسطو دون ذكر كلمة نقد واحدة مما قالها المسلمون فيه ، ودون الإشارة إلى أن ابن تيمية وغيره من علماء أصول الفقه قاموا بهدم هذا المنطق الصورى النظرى ، وأنه لم يقم له بعدها قائمة في الشرق أو الغرب ، وأنهم أقاموا مكانه المنهج التجريبي الاستقرائي الذى أخذت به أوروبا بعد ذلك على يد « فرنسيس بيكون » و « مل » وغيرهما .

ويعتبر هذا المنطق الاستقرائي هو المعبر الحقيقى عن روح الإسلام وقد نسبته المؤلف زوراً إلى الغرب رغم أنه منهج إسلامى لحماً ودماً .

كيف تمكن المسلمون من إقامة منهجهم الاستقرائي على أنقاض المنطق الأرسطي :

بعد أن كانت الفكرة السائدة لدى الباحثين أن المنطق الأرسطي هو قانون العقل الذى لا يرد ، وأن أحكامه يقينية ، قام المسلمون باكتشاف منطق جديد هو المنطق الاستقرائي التجريبي الذى يعد أعظم ما قدمه المسلمون إلى الفكر الإنسانى ، ويعتبر فتحا جديدا فى المجتمع العلمى الحديث ، لدرجة أن ما ذكره روجر بيكون وفرنسيس بيكون ومل وغيرهم لم يزد على ما ذكره المسلمون . والسبب الذى جعل المسلمون يهتمون بالملاحظة والتجربة أى الاستقراء هو أن الإسلام نهى عن البحث فى الشئ فى ذاته . أى ما هيته وجوهره وكنهه وغير ذلك من المسائل الميتافيزيقية التى انشغل بها اليونانيون ، وهى لا طائل من ورائها ولا منفعة . خاصة وأن ميتافيزيقا القرآن الكريم قد جاءت كاملة فى أمور الغيبيات كالروح والبعث وغيرها فكفى المسلمون مشقة البحث فيها ، ودعاهم الدين إلى السيطرة على الحياة. وفى هذا المعنى يقول الإمام مالك (لا أحب الكلا إلا فيما تحته عمل) . لذلك فقد اندفع المسلمون منذ عهد الصحابة إلى وضع الأصول الأولى للمذهب التجريبي فى نسق منهجى متكامل . ثم أخذ عنهم الغرب هذا المنهج وادعاه لنفسه . أما اليونانيون فقد اعتبروا التجريب خاصية العبيد ، ورفضوا أن تكون التجربة هى وسيلة المعرفة بل كانت الوسيلة هى النظرة العقلية المجردة مدعين بأنها تؤدى إلى المعرفة اليقينية الشاملة الكلية^(٥) وإزاء هذا فقد قام المسلمون بحركتين . حركة هدم للمنطق الأرسطي ، وحركة بناء لمذاهب منطقية جديدة مبتكرة كما يلي :

أولا : مرحلة هدم المسلمين للمنطق الأرسطي :

قام بحركة الهدم :

(١) علماء أصول الفقه الإسلامى وهؤلاء هم أول من ينسب إليهم المنهج الاستقرائى الإسلامى لأن علم أصول الفقه بالنسبة للفقه يعتبر كالمنطق بالنسبة للفلسفة . فأصول الفقه هو مجموع طرق الفقه التى تعصم ذهن الفقيه من الخطأ أثناء استنباطه للأحكام. أى أن أصول الفقه هو منهج البحث عند فقهاء المسلمين . وأول من وضعه هو الإمام الشافعى ولو أن فكرة القياس التى هى هدف عالم الأصول قد ظهرت أيام الصحابة .

(٢) علماء الكلام خاصة الأشاعرة حيث عابوا على المنطق الأرسطي اعتماده على الميتافيزيقا اليونانية وهى تخالف عقائد المسلمين .

(*) مذكرات فى المنطق الأرسطي للدكتور محمد جلال شرف ص ١٣٦ .

(٣) علماء الفقه وعلى رأسهم ابن تيمية الذى قال بأن المنطق الأرسطى يقيد الفطرة بقوانين صناعية متكلفة كلية ثابتة مما يجعلها غير متناسبة مع الحاجات البشرية المتنوعة والمتغيرة .

(٤) كما عارضه العلماء التجريبيون وفلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع وغيرهم ممن طبقوا فى أبحاثهم المنطق الإسلامى الاستقرائى التجريبي .

ثانيا : مرحلة بناء المنطق الإسلامى

أى المنهج الاستقرائى التجريبي الذى أخذته أوروبا عن المسلمين . ويعبر عن الروح الإسلامية التى تنسق بين النظر والعمل . وهذا هو ما يميزها عن الحضارة اليونانية التى تعتمد على النظرة الفلسفية الميتافيزيقية المجردة وتهمل التجربة العملية وغير ذلك مما نقدها فيه الإمام ابن تيمية وغيره من المسلمين . وقد تأثر فرنسيس ببيكون بالمسلمين فى تقديمه للمنطق الأرسطى كما أخذ منهم منهجهم التجريبي الاستقرائى .

وفى هذا يقول المفكر الإنجليزى بريفانت : إن روجر بيكون درس العلم العربى دراسة عميقة ، ولأنه لا ينسب له ولا لفرنسيس ببيكون أى فضل فى اكتشاف المنهج التجريبي . وأن الذى أدخله إلى أوروبا هم العرب ، وإن هذا المنهج هو المعبر عن روح الإسلام التى تنسق بين النظر والعمل^(١) .

ويقول د. محمد جلال شرف: إن أخطر وأعظم ما قدمه المسلمون إلى الفكر الإنسانى هو منهجهم التجريبي الذى يعتبر ثورة عارمة وأصيلة على الفكر اليونانى ، وإن ما ذكره روجر بيكون وفرنسيس ببيكون وجون استيوارت مل ودافيد هيوم حديثا لم يزد على ما ذكره المسلمون فى هذا المجال^(٢) .

فكيف تجاهل المؤلف دور المسلمين فى قيام المنهج التجريبي فى حين اعترف الغرب بهذا الدور . واعتبر أن هذا المنهج هو أعظم فكرة عرفت بها البشرية . وأنه من نتاج العبقريّة الإسلامية وحدها . لأنها هى التى تخرج بين النظر والعمل .

الأدلة على أن المنهج التجريبي منهج إسلامى :

يمكننا أن نستنبط بسهولة تلك الأدلة مما ورد بالكتاب المقرر نفسه . فإذا تدبرنا ما ورد فى صفحة ٢٠ وما بعدها تحت عنوان (طرق التحقق من صحة الفرض العلمى) التى

(١) مناهج البحث للدكتور على سامى النشار ص ٢٧٧ .

(٢) مذكرات فى المنطق الأرسطى د. محمد جلال شرف ص ١٣٦ .

أدعى الكتاب بأن « فرنسيس سيكون » هو الذى وضعها وأن « مل » قد حسنها . نجد أن هذه الطرق قد أخذت بكاملها من المسلمين . فمثلا :

١ - طريقة الاتفاق : أى التلازم فى الوقوع .

والتى يقول فيها « مل » أن العلة والمعلول متلازمان فى الوقوع فإذا وجدت العلة وجد المعلول .

نقول إن هذه الطريقة قد أخذت من قانون « اطراد العلة » عند المسلمين، الذين يقولون: إن هناك اطراداً أى نظاماً فى وقوع الحوادث مما يجعلنا نحمل صورة الفرع على الأصل مع تغليب الظن وليس اليقين . فإذا رأينا مثلاً فرس القاضى واقفاً على باب الأمير غلب على ظننا كون القاضى فى دار الأمير ، وما ذاك إلا لأن تلازهما فى سائر الصور أفاد الظن فى هذه الصورة . وبالمثل الغيم دليل المطر ثم عدم نزول المطر فى بعض الصور لا يقدح فى كون الغيم دليلاً . وبالمثل إذا وجدنا الإسكار فى الخمر وجدنا التحريم، ثم إذا وجدنا الإسكار فى شراب آخر جزمنا بوجود التحريم فيه . وجميع هذه الأمثلة تدل على أن هناك اطراداً أى نظاماً فى وقوع الحوادث . وبذلك يكون المسلمون قد سبقوا بقانون الطرد قانون التلازم فى الوقوع عند « مل » والذى يسميه الكتاب المقرر « طريقة الاتفاق » .

ويعطى المسلمون أمثلة أخرى لقانون الطرد مثل: حرمان قاتل مورثه من الميراث . وعلة ذلك أنه استعجل غرضه قبل أوانه ، وعولج بنقيض مقصوده وهو الحرمان من الميراث . وأن هذا الحكم طرد أى انتقل إلى الناكح فى العدة حيث يحكم عليه المالكية بنقيض مقصوده . كما عاملوا قاتل مورثه بنقيض مقصوده^(٣) .

٢ - طريقة الاختلاف : أى التخلف فى الوقوع .

وهى عكس طريقة الاتفاق ؛ لأنها تقوم على أساس أنه إذا تخلفت العلة تخلف المعلول . وقد أخذ « مل » هذه الطريقة من قانون « العلة المنعكسة » عند المسلمين . والذى يقولون فيه إن العلة تدور مع الحكم عدماً ، أى كلما اختفت اختفى^(٤) .

٣ - طريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف : وهى الطريقة التى تجمع بين الطريقتين

السابقتين ، لزيادة التأكيد من وجود علاقة سببية بين الظاهرة وتلك العلة ، حيث تظهر الظاهرة بظهورها وتختفى باختفائها .

(٣) مناهج البحث ص ١٠٠ للدكتور على سامر النشار .

(٤) نفس المرجع ص ١٠١ .

وهذه الطريقة تسمى عند المسلمين الدوران أى دوران العلة مع المعلول وجودا
وعدمًا . كما تسمى أيضا الجريان ، أو الطرد والعكس . ويقول المسلمون بأن الدوران هو
عين التجربة . أى أن الدوران هو أوج المذهب التجريبي عند المسلمين . ومثاله هو عصير
العنب قبل أن يدخله الإسكار كان حلالا ، فإذا ما دخله الإسكار أصبح حراما ، فإذا ذهب
عنه الإسكار ذهب عنه التحريم . وحيث أن التحريم اقترن بالإسكار وجودا وعدمًا ، ثبت
أن الإسكار هو علة التحريم . وقد اختلف علماء الأصول في اعتبار الدوران موصلا
إلى اليقين أو إلى الظن . ومسلك الدوران هذا هو قانون التلازم في الوقوع وفي التخلف عند
مل^(٥) .

وباختصار نقول : إن مفكرى الإسلام قد سبقوا المحدثين خاصة بيبكون ومل في وضع
قوانين الاستقراء وطرقه . وذلك عندما أقاموا القياس الأصولى على قانون العلة واطراد
الحوادث فى الطبيعة ، انطلاقا من إيمانهم بانتظام حركة الكون واطرادها ، كما أرادها الله
وسخرها للإنسان ، فوضعوا شروط العلة وطرقها التى تساعد على تفسير الظواهر فى إطار
موهبة التخيل والتوقع العلمى لدى الباحث ، مؤسسين ذلك كله على التجربة التى قلدهم فيها
المناطق المحدثون حيث أقاموا منهج الاستقراء الذى اقتبسوه من المسلمين على أساس التجربة .
بدليل أن كتاب الفيلسوف الفرنسى فرنسيس بيبكون (الأورجانون الجديد) الذى كتبه نقداً
لكتاب (الأورجانون القديم) لأرسطو ، يكاد يطابق كتاب الرد على المنطقيين لابن تيمية
والمعروف أن اللاحق هو الناقل عن السابق^(٦) .

ويبقى بعد ذلك ملاحظة هامة وهى أن المسلمين قد سبقوا حتى أصحاب المنهج
المعاصر فى اعتبار أن العلية ليست هى الأساس الوحيد للاستقراء ، بل سلموا بوجود طرق
أخرى بجانبها بدليل أن هيوم نفسه قد تأثر بما قاله المسلمون فى نقده للعلية^(٧) .



(٥) نفس المرجع ص ١٠١ .

(٦) من مقال د. فوقيه حسين بالأهرام فى ١٩/٩/١٩٨٦ .

(٧) مناهج البحث ص ١٠٣ .